الأدب وتجربة العبث

تقديم وترجمة لقصة سفيفو «فيض النبيذ»

بقلم الدكتور عبد الحميد ابراهيم

« لم يعد العالم معقولا » . تلك هي صيحة الأم في مسرحية « سوء تفاهم » لالبير كامو وقد تكشف العالم امامها عاريا وسقطت عنه جميع الاقنعة ، وذلك هو الاكتشاف الذي توصلت اليه التجربة العبثية في الادب المعاصر . انه ادب جريء وشجاع لم يرض أن يعيش في خداع وأن يعطي للعالم معنى من صنعه . ان العالم هو ذلك الشيء الخارجي القائم بذاته والذي يتحدانا . انه عالم بلا معنى ، ولكن الانسان القديم لم يحتمل هذه الحقيقة لانها تثير القلق والتحدي ، فخلع على العالم من تصوراته وأعطاه من القيم ما يمكن ان يبرر به حياته ويسمح له بالعيش بعيداً عن القلق والتوتر . ان العالم بذلك يختلف باختلاف الاسقاطات والقيم المفروضة عليه . فهو امام الاغريق يختلف عنه امام فلاسفة الاسلام ، وهو في قرية من قرى مصر يختلف عنه في قرية من قرى اليمن ، وما ذلك الا لان الانسان يضفي على العالم شيئا من نفسه ويقدمه في الصورة التي يريد ان يحيا بينها وان تمنحه الامن ومواصلة العيش . ولكن تجربة العبث المعاصرة تواجه الحقيقة التي يهرب الانسان منها ومن تحمل مسؤوليتها . انها تضع العالم بين قوسين وتطرح كل ما هو دخيل عنه . ان صيحة ديمتري كارامازوف « يا الهي كل شيء مسموح به » ليست صيحة من يجري وراء غرائزه وملذاته ، ولكنها صيحة من يحس بعظم المسؤولية وقد اصبح مطالبا بأن يطرح كل ما كان يعيش فيه من قيم معان تبعث في داخله الطمأنينة والرضى . ان تجربة العبث هي كالشك الديكارتي الذي هو الخطوة الاولى للوصول الى اليقين ، ولكنها اعظم ثقلا منه . ان المنهج الديكارتي هو الشك فاليقين ، ولكن تجربة العبث لم يسعدها الطالع فتصل الى الخطوة التالية ، أي الى مرفأ الامان . هي أحست أن العالم قد فقد معناه ، ولكنها لا تدعي انها قادرة على منحه المعنى المفقود . وهنا سر التوتر وسر الارتعاش وسر الحركة المضطربة في ادب العبث : انه ادب قد وضع في قلب التجربة وهي عارية من كل شيء ونكاد لا تنبيء بشيء ، وهو ادب ناضج لا يريد ان يخدع نفسه فيضفي على التجربة ما يريحه لانه يدرك ان موقف المواجهة مع ما فيه من عذاب هو الموقف الجدير بالانسان ، لانه موقف الوعي الذي يتفجر فجاة داخل الانسان « من منعطف شارع » ، مثلا ، على حد تعبير كامو (١) ، فاذا كل شيء امامه عبث ، واذا الغايات والاهداف تتساقط عارية . وهو موقف يفرق بين الانسان الحقيقي والانسان الجماد . فالانسان قبل هذا الموقف وقبل ان يتفجر الوعي في داخله هو اشبه بعربة الاوتوبيس التي تعمل من السادسة صباحا ، ويكون عليها اذا كانت تحمل رقم ٨ مثلا ان تسير من التحرير الى الاهرام وبالعكس . ان العربة هنا تكاد لا تعرق عن سائقها . ولكن ما ان يتفجر الوعي حتى يتغير كل شيء وتختفي البلادة والرتابة . ان موقف الوعي نفسه مع ما فيه من عذاب هو جزاء صاحبه لانه اصبح انسانا من نوع آخر ، وهذا الموقف له من الجاذبية والاغراء ما لا يعادله بشيء . ان ميرسو في رواية « الغريب » يداهمه الاحساس بأن كل شيء باطل وقبض الريح . ان مشاعره متجمدة ازاء كل شيء ولو كان موت أمه . انه يقتل ولا يحس بأنه يقدم على شيء ، ان كل شيء مسموح به . لقد حكم عليه بالاعدام ولكن لا شيء يهم . انه يتمنى ان يجتمع حوله متفرجون كثيرون . انه يحس في نهاية الرواية بفيض من الاحاسيس تزخر بها نفسه . انه يثور على الكاهن وعلى كل من يشاركون في اللعبة المزيفة لانهم لا يدركون ما قد أدرك . انهم يعيشون في عماء ويحجبون عن انفسهم وبحمقهم حقائق زاخرة تفيض على نفسه بالفرح والاحاسيس الثرية . انه يفوقهم ، ومن ثم فان « ماري » تحبه لا لشيء الا لانه « غريب الطباع » على حد وصفها .

وايتالو سفيفو (٢) في قصته هذه يكتشف لحظة العبث . ان الناس يجتمعون على العشاء احتفالا بزواج ابنة اخته . انهم يأكلون ويشربون ويتحدثون ، ولكنه لا يحس بسعادتهم بل يحس بشيء من الاشمئزاز والضيق . انه يدرك ما لا يدركون . انهم يصدرون عن موقف المتفرج ، ولكنه هو قد داهمته لحظة العبث . ان الحياة هي

(١) راجع : « كامو والتمرد » ص ١٠ ، تأليف روبير دولوبيه وترجمة الدكتور سهيل ادريس (منشورات دار الآداب) .

(٢) ايتالو سفيفو (ITALO SVEVO) ، أي ايطالي ولد بتريستا سنة ١٨٦١ ومات بموتادي ليفنزا سنة ١٩٢٨ ، وقد عمل مهندسا الى ان اكتشفه جيمس جويس الذي حمله على نشر روايته الشهيرة « اعترافات زينو » Confessions of zeno ونشرها سنة ١٩٢٣ . اما قصته « فيض النبيذ » generous vin فقد كتبها قبل سنة ١٩١٤ ثم نشرها منقحة في ميلانو سنة ١٩٢٧ راجع :
« Shart Sentismental Journey and other Stories »
translated B Y : L . Collison Morley

مرض وقيود وتقاليد اجتماعية . انها جيوفاني وآلبرتي وزوجه وابنه وابنته . ان كل هؤلاء حمقى يسعون نحو المال والسيطرة والاستمتاع. لقد أفلحوا بمنطقهم المفليدي في ان يجعلوا واحدة منهم تترك حياة الرهبنة والطهر وتدخل عـالم الزواج . انه يريد ان يثور عليهم ، ان يهدم قوانينهم . لقد أحالوا حياته جحيما لا يطاق وجعلوه يلجأ الى المسكنات والادوية . ان كل شيء لم يتقـدم على وجه الارض ، فلا تزال الارض ــ ورغما عن كل الافكار التقدمية ــ ملكا خاصا ، ولا تزال الاغلبية من الناس تتضور جوعا ، فماذا يهمه بعد ذلك ؟ ان كل شيء متساو ومسموح به ، وإذن فليضرب بتعـاليم الطبيب عرض الحائط ، وليسرف ــ على الرغم من دائـه ــ فـي الاكـل والشرب . ألا يحتمل هذا المساء اشياء اخرى مضرة وعسرة الهضم ؟ وهنا تبرز لحظة السخرية والعبث بالتقاليد الزائفة . انه يلقي حجرا في بحيرة آسنة ، فيسخر من آلبرتي ، ويريق الخمر في البالوعة ويشتم ابنته ويثير ضجيجا وعجيجا وهم يحـاولون أن يعاملوه كطفل كبير او كمجنون ، وان يترضوه حتى لا يفسد صفو ليلتهم . انكم ايهـا الحمقى تعيشون عالما غير حقيقي . أما العالم الحقيقي فهو ذلـك الكابوس الذي يتراءى له حين آوى الى غرفة نومه . ان الحيـاة هي كابوس ، هي ذلك الكهف من صنع الانسان . انها عيون حاقدة ومطاردة ، انها أشبه بالزنزانة او بذلك الصندوق الزجاجي الـذي يلاقي المرء فيه العذاب وحيدا . ومن مصدر العذاب ؟ انهم المحيطون به بتعاليمهم الجوفاء ونصائحهم الفارغة وأفقهم الضيق . انه يرى في عالم الكابوس زوجته والطبيب وهم يعددون جرائمه . ان زوجته كما يقول تحبه دائما حبا غبيا . ان عالم الحلم هو العالم الحقيقي ولكن الناس يزيفون ذلك حتى يعيشوا سعداء . انه يكاشف زوجته فـي الصباح بجريمتهمـا في انجاب الاطفال ، فتجيبه ببساطتهـا المعهودة: « ولكنهم سعداء بالحياة » . نعم سعداء ، ولكنها سعادة الجاهـل الذي لم تتراء له الحقيقة ، ومن ثم لم يـرد ان يكاشفهـا بحقيقـة الحلم . ان شمس الصباح وحركة النهار قد غطيا عالم الحـلم . ان الانسان دائما يهرب من الحقيقة الى عالم مـن وهمه وصنعه . ان البطل في هذه القصة يزمع على ألا يعود مرة أخرى الى هذا الكابوس المرعب الفظيع ، وهو ايضا يصنع لنفسه المسكنات والتقيم ، فحتى لو عاد الى هذا الكهف فلن يلجأ الى الغدر ولن يلجأ الـى التزلف مثل كلب يهز ذيله .

و« سفيفو » لا يلجأ الى تكنيك تجريدي ولا يخلق عالمـا موازيـا لهذا العالم يطبق فيه آراءه وافكاره كما هو الحال عند كافكا (٣) ، انه يختار شخصياته وأحداثه من وسطه ومن مخالطيه ، ومشاغـله ليست مشاغل ميتافيزيقية . ان مـا يؤرق المتهم عند كافكا هو البحث عن تهمة عند قضاة لا يعرفهم ، وما يشغل فوكنر في رواية « الصخب والعنف » هو رواية المعتوه عن عالم لا رابط له . ولكن ما يؤرق سفيفو هنا هي تلك الاشياء العادية في حياته . لقد منح البطل في تلـك القصة حريته ، ولكن أية حرية في جسد مريض ؟ انه يريد ان يشرب وان يثور على الغد ، ولكن حجره يغص بها حلقه . ان الحياة فـي طقوسها العادية هي سر المأساة عنده . ان الاشياء المألوفة تتحـول عنده الى مشكلة . انه يناضل ويكافح من اجل ساعة من النـوم مع ان « أي حصان عجوز ومتهالك يمكنه ان يغفو وهو واقف » عـلى حد قوله .

ان التعبير عن عبثية الحياة وغمـوضها لا يلزم بالضرورة ان يلتزم صورة واحدة كما هو الحال في الكثير من قصص الشبـان عندنا . ان لكل كاتب من الكتّاب العالميين لونه المتفرد في التعبيـر عن ذلك . ان بيكيت تصبح القصة عنده بلا رأس ولا ذيل . هـي صورة من الحياة كما يراها . انه لا يعبر بل يصور ، فمن الصعب ان تخرج بمعنى تدل عليه القصة ولكنك تخرج بانطباع واحساس . ففي قصته « تخيل الميت يتخيل » Imag-mation Dead Imagine نجد اضطرابا وفوضى وقبوا يقلب مرة ويعدل ثانية ، ، انـه يريد ان يشكل انطباعه نحو الحياة وان يجعل من تركيب قصته معـادلا فنيا لهذا الانطباع . انه لا يتطلب من الشكل ان يعبر وان يقـول شيئا ، ولكن يتطلب منه ان يصير الشيء نفسه . ان الشكـل لا يصبح معبرا عن الاحاسيس ومقابلا لها ، ولكنه يختلط بها ويصبح جـزءا منها . هو يختلف عن كافكا الذي يلجأ الى الرمز والى خلق عـالم في قصته من شخصيات ذات اسماء ومهن واوضاع اجتماعية ، ويقيم من هذا العالم بناء موازيا لعالمه المعاصر ولكن يحمل نظرته ازاء هذا العالم . ان قصته لا تختلط ولا تصبح بلا رأس ولا ذيل . انها تحمل دلالات ومعاني . وان « آلان روب غرييه » يكتب قصته بصورة مختلفة تماما . انه لا يضفي عليها أية دلالات وأحاسيس بشرية . انه يشكلها بطريقة موضوعية تماما تحفظ للشيء الخارجي استقلاله عن سيطرة الانسان وادعاءاته . انه يعتمد في قصته على الوصف التفصيـلي للشيء وتتبع دقائقه ، بحيث يظهر له وجوده الخارجي المستقـل تماما عن المشاعر الانسانية . ان المشاعر عنده لون من التزييف يلقيه الانسان على الطبيعة فيخلع عليها معاني من صنعه . ان أهم صفـة للشيء هي وجوده وحضوره . واذا استطاع الفنان ان يرسم هـذا الوجود فسيكون حينئذ صادقا وموضوعيا ، أما اذا اضفى على هذا الوجود شيئا او معنى فانه سيحبس نفسه بعد ذلك في عالم مـن صنع نفسه ومن صنع دلالاته ، وستمتنع الحقيقـة حينذاك عن ان تسفر له (٥) . وان سارتر يعتمد على أن ينقل القارىء الى الموقف الخارجي بكل خصوبته وتشابكه . ان الطبيعة تكتنف « روكانتان » في رواية « الغثيان » وتحيط به من كـل جانب : جذع لشجرة ، وخط لظل صغير ، ووسادة المقعد ، وقط ، وزجاج مبيض ، ورجـل ذو عينين زرقاوين . ان كل هذا يكتنف روكانتان ويشكل معنـاه . ان الوجود هنا يسبق الماهية . وان سارتر يقول في هذه الرواية : « لقد تحررت الاشياء من اسمائها ، فهي هنا وحشية عنيدة عملاقة ، ومن السخف تسميتها بأنها مقاعد او التحدث عنها بأي شيء . انني وسط الاشياء التي هي غير قابلة للتسمية ، انها تحيط بي وحيـدا بلا كلام ولا حماية ، تحتي وخلفي وفوقي ، انها لا تطلب شيئـا ولا تفرض نفسها . انها هنا ... » (٦) . أما ايتالو سفيفو فهو يرسـم ضيقه بالحياة من خلال طقوسها العادية . ان الممارسة اليومية تصبح قيودا وثقلا ، وان الراوي في قصته « فيض النبيذ » يرى الحيـاة ثقلا لا يحتمل ومرضا مميتا . انه يثور عليها فيأكل ويشرب رغـم تعاليم الاطباء . ومن ثم كان اعتماده هنا عـلى السرد وعلى ذكر الاحداث اليومية الجارية .

ان الفن فن بمقدار ما يحمل من طابع التفرد والتميز ، واللحظة المعاصرة هي ملك للجميع ، ولكـن التعبيـر عنها يختلف باختلاف الموهبة والابتكار . ان الكثير من قصص الشبان عندنا يكاد بعضها لا يتميـز عن البعض الآخر ويصبح من الصعوبة ان تجد لكل قصة طابعهـا المستقل . ان مشكلتنا في روح التقليد التي تسري بين مختلف مظاهر الحياة عندنا . عرفنا الشكل التقليدي في القصة فاذا بآلاف القصص

---

(٣) راجع دراسة « كافكا والموت » ، (مجلة « الآداب » ــ نوفمبر سنة ١٩٧٠) .

(٤) راجع :
The Penguin Book of modern Ewroplan Short Stories 1969

(٥) راجع دراسة « مع قصة لآلان روب غرييه » (مجـلة « الآداب » ــ اغسطس سنة ١٩٧٠) .

(٦) « الغثيان » ص ١٧٨ ، ترجمة الدكتور سهيل ادريس (منشورات دار الآداب) .

تؤلف وتكاد ان تكون على صورة واحدة ، بل انها تتشابه حتى في اختيار الموضوع وفي معـــالجة المشكلة ، بل وفي استخدام بعض المفردات والالفاظ . وما ان يظهر بيننا شخص مبدع وله فرديتـــه حتى يتوالى على نهجه الكثيرون . ظهر محمود تيمور في القصـــة القصيرة فاذا بطريقته في عرض الشخصيات ورسمها رسما خارجيا مع التركيز على ما فيها من شذوذ وامراض نفسية تصبح مهوى الجميع. وظهرت روايات نجيب محفوظ التي تدور في الاحياء الشعبية فصارت نغمة سائدة ان يتحدث القاص عن الاحياء الشعبية ، واصبح مـــن الاستظراف أن يعنون روايته باسم حي شعبي . وظهر الحديث عـــن الغربة والعبث فاذا بجميع الشبان يتحولون الى فلاسفة ويدركـــون ما في الحياة من عبث وخداع حتى ولـو لـم يعانوا هـذا العبث او يقرأوا شيئا عنه . قد يكون التقليد مستساغا في بعض المظـــاهر الاخرى ، ولكنه لن يكون كذلك وباي حال في جانب الفن ، لان الفن أساسا يقوم على الحرية واستيحاء الذات والغوص في اعماقهـا .

انه بهذه الصفة يدخل مجال الفن وليس بصفة التحلي الجديـــدة والاثواب العصرية . ان الناقد لا ينظر الى العمل بقدر ما فيه مـــن « اكسسوارات » ، ولكن ينظر اليه كمخلوق يقاس نجاحه ووجـــوده بقدر ما يتمتع به من شخصية تثير في داخل القارىء الحرية وتدفعه الى الاحساس بالجمال . ان لكل تجربة شكلها ووجودها ، والفنـــان الحقيقي لا يكتب قصته من اجل ارضاء الناس ومن اجل ما هو سائد، وانما يكتبها من اجل الفن ومن اجل منطقه الذي يختلف من لحظـــة ابداعية الى اخرى . ان اللحظة الفنيـــة لا تتكرر والا فقدت عنصر الفن ، لان الفن اساسا ابتكار . انه حالة ، واجتهاد الفنان هو من اجل ان ينقل هذه الحالة ويحاول ان يمنحها وجودا في حـــدود وسائله ، نغمة كانت أو حرفا . ان الحرفية مهما كانت لا تستطيـــع ان تخلق « حالة » داخل الفنان ، وكل جهدها ان تحيط بهذه الحالة وان تنقلها من مرحلة الهجس والانتظار الى مرحلة الوجود والتشكل. ان الحالة المصنوعة حالة زائفة مهما كانت من البراعة ، لانه ينقصها شيء قد لا يستطاع وصفه ولكن يمكن الاحساس بفقده ، ذلك الشيء هو ما يسميه يحيى حقي بالاحساس الفريزي بروح الفن القصصي ونبضه ومزاجه (٧) . والفنان الحقيقي لا يحاول التدخل في خلـــق هذه الحالة وانما يتركها تتشكل في داخله وتنمو شيئا فشيئـــا كجنين داخلي ، حتى اذا انتهت فترة الحضانة وجاء اوان الفقس ، فحينئذ يتدخل باجتهاده وبصناعته .

وفيما يلي ترجمة القصة :

فيض النبيذ

بدأت ابنة اختي في الزواج وهي تقترب من سن العـــوانس وتبتعد عن سن الشابات . ومن المؤسف ان نبذها للعالم لم يطـــل ، فان ضغط الاسرة قد حملها على العودة اليه والتخلي عن دعـــوة العقيدة الى الرهبنة ، فقبلت عرض الشاب الذي اختاره اسرتها لانه قرين كفؤ . وغالبا ما تكون هناك نهاية للاحلام عن العزلة الطاهرة التي تدعو اليها العقيدة . وحدد يوم الزفاف باسرع مما رغب الاقارب الذين يجتمعون الآن على العشاء في حفلة ليلة الزفاف .

ضحكت في سري وقلت : لعله عجوز مجرب ، فهل يستطيـــع الشبان ان يحملوها على تغيير فكرتها هكذا بسرعة ؟ فمن المحتمل انه اخذها بين ذراعيه وجعلها تحس بمباهج الحياة ، ثم غرد بها بـــدلا من ان يحاول اقناعها . وهذا هو السبب في فيض التهاني التـــي تنهال عليها . ان كل الناس يحتاجون الى من يهنئهم ليلة الزفاف . ولكن هذه الفتاة تعامل بطريقة لم يعامل بها احد من قبل . وانـــه لنكبة اذا احست في يوم ما بالندم لانها استجابت لضغطهم على العودة الى هذه الطريق التي نفرت منها بطبيعتها . ومن خـــلال معاقرتي لبعض الكؤوس صفت تهنئة مناسبة لهذه الحالة الخاصة « أتمنـــى لكما السعادة سنة وسنتين ثم تواصلان السير برخاء اكثر . اشكر فضلكما عليّ بان اتحتما لي هذه اللحظات من السعادة . ان الانسان قد يندم على ما فات ، وهذا الندم هو الالم الحقيقي في الحياة ، ولكنه ألم يلتذ به الانسان الاصيل » .

ولم تفصح مشاعر العروس عن حقيقة الموقف الذي يدعو الـــى هذه التهاني الكثيرة . وحقا قد بدا وجههـــا كالبلورة يشف عـــن مشاعر التبذل والجرأة ، ولكن هذا المظهر ذن نفس المظهر الـــذي اكتسته يوم ان اعلنت رغبتها في ان تعتزل بالدير . لقد قطعت على نفسها عهدا في ذلك الحين بان تظل في غبطتها على مدى الحياة . ان اناسا آخرين يقطعون عهدا بمثل هذه الطريقة ، فهل هي حافظت على عهدها اكثر من غيرها ؟

وكان الجميع مسرورين الى اقصى حد ودون كلفة لانهم يصدرون من موقف المتفرج . اما انا فلم تكن لديّ القدرة على الاستجـــابة للسرور . ان هذا المساء لا يتنسى بالنسبة لي . فقد أقنعت زوجتي الدكتور « باولي » على ان يدعني بسبب هذه المناسبة آكل وأشرب كالآخرين . وكانت الحرية اكثر اغراء من ان استجيب للتحذير الذي فقد اثره ، فتصرفت تصرف شاب صغيـــر اعطي قيادتـــه لاول مـــرة ، فأكلت وشربت لا لانني جائع او عطشان ، بل من شدة حنيني الـــى هذه الحرية التي كنت محروما منها . وكانت كل مضغة وكل مصة تأكيدا للامبالاتي . وفتحت فمي باتساع اكثر مما هو لازم لتنـــاول اللقمة . وكانت الخمر تمر من الزجاجة الى الكاس الى الطوفـــان الذي لا يشبع ولم اتركها اكثر من لحظـــة واحدة ، واحسست وانا ملتصق بالكرسي بالرغبة في ان اتحرك هنـــا وهناك ، وان اجري واقفز مثل كلب قد انفلت من سلسلته .

وارتكبت زوجتي ما هو اسوأ حين اخبرت جاري بالنظام الذي أسير عليه في الاكل . وكانت ابنتي « ايما » البالغة من العمـــر خمس عشرة سنة تصغي الى امها وتكمل ايضاحاتها وقد اكتسبت طابع الاهمية . انهم يذكرونني بالوثاق الذي حل منذ لحظة . أسيعيدونني اليه ؟ ان كل العذاب قد تمثل لي . كيف كانوا يزنون قطعة اللحم الصغيرة المسموح لي بتناولها في الظهيرة وقد جردوها من كل طعم . وكيف كانوا لا يجدون شيئا يزنونه في المساء ، لان العشاء يتكون من قرص من الخبز مع مضغة من لحم الخنزير المقدد وكوب من اللبـــن الساخن بلا سكر ، فكان يثير تقززي . وبينما كانوا يتحدثون ضربت بعلم الدكتور وبنظامهم عرض الحائط . ماذا يحـــدث لو خالفت النظام ؟ انهم نجحوا في فعلتهم فجعلوا انسانا يتزوج ارضاء لهم . أفلا يحتمل هذا المساء أشيـــاء اخرى مضرة وعسرة الهضم ؟ انني سأشرب تأهبا للثورة على الغد ، فليروا .

اصطف الحاضرون لتناول « الشمبانيا » بعد أن شربوا بضعة كؤوس على نخب صحتهم . اما انا فقد عدت الى نبيذ « استوريا » العادي ، اذ كان حراقا وصرفا أرسله احد اصدقاء الاسرة بسبب هذه المناسبة . وانا احب هذا النبيذ حب الانسان لذكرياته واشعـــر بالثقة فيه ، ولهذا لم اندهش حين اشعل الغيظ في صـــدري بدلا من ان يجلب لي السرور والنسيان .

كيف يمكنني ان اعبر عن غيظي ، وقد احالوا جانبا من حياتي عبئا ثقيلا عليّ ؟ فالخوف والكبت جعـــلا ابداعاتي تفنى تفاء بعض الادوية والحبوب والسفوف التي تكدست فـــي الحجرة . للجحيم بالمجتمع ، فلن يهمني شيء اذا كـــانت الارض ــ ورغما عن الافكار العصرية المستنيرة ــ لا تزال ملكية خاصة ، أو انه بناء على هـــذا لا يحصل الكثيرون على قوتهم اليومي ولا على قليل من الحرية التي تسمو بها حياة الانسان . أيجب ان يهمني شيء من هذا او ذاك ؟ لقد حاولت هذا المساء المبارك الا اغير شيئا من طباعي القديمة،

---

(٧) فجر القصة المصرية ، ص ٢٠ .

وحين بدأ ابن أختي « جيوفاني » ـ وهو رجـــل ضخم في وزن سبعة عشر حجرا ـ يحكي بصوته الجهوري القصص عن فطنته فـي العمل وغباء الآخرين ، أحسست بغيرتي القديمة تتحرك في صدري فصحت فيه : « وماذا نفعل لو ان الصراع بين الناس لم يعد من أجل المال ؟ » .

وعقدت ملاحظتي الحادة لسان جيوفاني للحظة ما . فقد فاجأته لتقلب عاله ، وبدأ يحملق فيّ بعينيـــه اللتين عظمتهما النظارة . وكان يبحث عن تفسير في ملامحي يولي وجهه نحوي . وبينما كـان كل شخص ينظر اليه متوقعا ان يضحك من اجابة هذا الغبي الـذي لا يخلو من ذكاء عملي ، اذ كان عقله خليطــا من البساطة والخبث ومليئا بالغرائب مع انه قد وجد من قبـــل « سانكوبانزا » . وعلق وهو يكتسب وقتا بأن الخمر تفسد مظهر الانسان في ساعتها ولكنها بالنسبة لي قد أفسدت تصوراتي عن المستقبل .

وكانت هذه مجرد اجابة ، فما ان اكتشف اجابة أحسن حتى صاح : « حينما يتوقف الصراع من اجل المال فسأمتلكه كله بـــدون صراع وبلا نقصان » . وانطلقت ضحكة طويلة ، وخاصة على اشارته بين الحين والحين بذراعيه الضخمتين وهو يمدهما الى اقصى حد ثم يشكلهما في قبضته ليؤكد فكرة احتوائه على المال كله وانه يتبعه من كل جانب .

واستمرت المناقشة ، ولم يـــلاحظ احد انني اصمت مكتفيا بالشراب . لقد شربت كثيرا وتكلمت قليلا ، وأنا مستغرق كلية في مراقبة نفسي لأرى فيما اذا كانت تفيض بالاريحية والغيرية . وبدأت أحترق ببطء من الداخل ، ولكنه احتراق جعل يتألق في احساس بالشباب جلبته لي الخمر في لحظة مركزة للغاية .

وصحت في جيوفاني متوقعا كل هذا : « لو انك احتويت المال فان الآخرين سيرفضون ويسجنونك » .

فرد باستعداد كاف وهو يصيح : « حينئذ سأرشو الحراس ، وأسجن الذين لا يملكون شيئا يرشون به » .

ـ ولكن النقود لا تدفع رشوة لأي انسان .

ـ ولماذا اذن لا يدعونني أمتلكها ؟

استشطت غضبا وصرخت فيه : « سنشنقك ، فانت لا تستحق أي شيء الا حبلا حول رقبتك وعلى قدميك » .

توقفت في دهشة ، وخيل لي انني قد تجحت في نقل أفكاري بوضوح . فهل كنت في الحقيقـــة كذلك ؟ لا ، وبكل تأكيـد لا . ففكرت « كيف يمكن ان أسترد حبي لكل الكائنات الحية بما فيهــا جيوفاني ؟ » . فابتسمت اليه فجأة وانا ابذل جهدا كبيرا ارضـاء لسيدي ، واعتذرت اليه وقبلته ، ولكنه منعني لانه لا يعير ادنـى انتباه لابتسامتي المتـــوددة ، وقال وكأنـــه يوطن نفسه على معرفة الجحيم : « لا بأس ، ان كل الآداب الاجتماعية تتوقف عمليا ونحن نهيب بمن ينفذ حكم الاعدام » .

لقد احتقرني وأنا كرهتـــــه ، فهو قد سمم كل حياتي التي استرجعها الآن بأسف وحساسية . حتى تلك السنون التي لم اعرف فيها الطبيب نفصها عليّ . لقد احتقرني باثارة الريبة المتناهيـــة التي احسها بحدة قبل ان يتكلم .

وما أسرع أن حلت بي مصيبة أخرى ، فقد قالت أختي وهـي تتفرس فيّ باستحسان « انه يبدو في صحة جيدة » . وكانت هـذه الملاحظة نذير شؤم ، فحالما سمعتها زوجتي حتى اعتقدت ان الصحة المفرطة التي تألقت في وجهي تنتج مرضا يعادلها في القوة ، فأصابها الرعب كما لو ان هناك خطرا يقترب ، وهجمت عليّ بقوة وصرخت : « كفّ عن هذا واتق بالكأس » . ثم استعانت بجاري تطلب النجدة منه . وكان جاري هو « ألبيري » ، من اطول الرجال في المدينة . أنيق ومتين وذو صحة جيدة ، ولكنه يلبس نظارة مثل « جيوفاني » .

وقالت له : « من فضلك خذ الكأس من يده » . وحـين رأته يتردد أصبحت اكثر قلقا وانفعالا وقالت له : « يا سيدي ، ابذل ما فيـه الكفاية لتنتزع الكأس منه » .

حاولت ان اضحك ، او خيـــل لي انه من حسن الآداب ان اضحك ، ولكنني لم أستطع . لقد أعددت خطتي من اجل الثورة على الغد ، وليس خطئي اذا ما فاجأني ما يسيء الى هذه الخطة . حقا ان المشاجرات في الاماكن العامة أمر مخجل ، فان « ألبيري » الذي لا يساوي مليما بالنسبة لي او ازوجتي أو لاي احد من هؤلاء الذين يتسلون بالنظر اليه ، قد ارتكب أخطاء أساءت الى مركزي . اذ أطل من خلال نظارته على الكأس التي شبثت بها ، ومد يديه يحاول ان ينتزعها مني ، ولكن ما أن نظرت اليه حتى سحبها بحركة مضحكـــة وكأنه خائف مني . والكل قد ضحك ، حتى جيوفاني استغرق في ضحكة عالية ومثيرة جعلته يلهث .

وظنت ابنتي « ايما » ان أمها في حاجـــــة الى المساعدة ، فجعلت تستعطفني ـ او هكذا خيـل لـي ـ بنغمة مبالغة : « بابـا ، لا تشرب اكثر من ذلك » .

فصببت جام غضبي على هذه الطفلة البريئة ، ووجهت اليهـا كلمات جارحة ومتوعدة وبامتعاض يصدر من رجل كبير هو في الوقت نفسه أب ، فامتلأت عيناها بالدموع ، وانصرفت اليها أمها تسكنها ولم تعرني أدنى انتباه .

وأقبل ابني « اوتافيو » ـ البالغ من العمر ثلاثة عشر عاما ـ الى أمه يستأذنها في الذهاب مع بعض اصدقائه الى معرض الصور دون ان يلاحظ دموع أخته او يتنبه الى المشاجرة التي أدت الى ذلك . ولكن أمه لم تلق بالا اليه لانها كانت مشغولة بترضية « ايما » .

فأردت ان استرد احترامي لنفسي وان أؤكد سلطتي ، فصحت في « أوتافيو » أعطيه الاذن : « طبعا انا اسمح لك بالذهاب لرؤية الصور وهذا فيه الكفاية » . فرجع الى أصدقائه ولم يتريث وهـو يقول : « أشكرك يا بابا » . فأصابتني الحسرة لانصرافه هكذا بسرعة ، فلو انه مكث معنا وكانت سعادته في ظل سلطتي لطبت نفسا بذلك .

ورفعت الكؤوس عن المائدة لبضع دقائق ، فأحسست انني قد قصرت في واجبي ازاء العروس التي نشرب الآن نخب سعادتهـــا ونسوق اليها الامنيات الطيبات والرغبات السعيدة . انها الشخص الوحيد الذي يمكن ان يفهم مشاعري ، او هكذا خيل لي . وكـانت ترنو اليّ بحنان بالغ وهي على أهبة الاستعداد لان تعتذر لي وتلاطفني . هذه الفتاة دائما توحي لي بالثقة في اتجاهاتها . فعلت ذلك حيـن كانت مغرمة بحياتها في الدير ، وتفعله الآن حين تقيم من نفسهــا مثالا يحتذيه الآخرون في التخلي عن هذه الحياة . كانت تنظر لـي ولزوجتي وابنتي من فوق الى تحت وكأنها ترثي لنا ، ثم حطت عيناها الجميلتان الرماديتان فوقنا وهي تبحث عن مكمن الخطأ . ففي اعتقادها انه لا ألم دون ان يكون هناك خطأ من شخص ما .

واشتعل حقدي على زوجتي ، فسياستها هي التي أذلتني بهذه الطريقة وحطت من منزلتي امام أقل واحد من الموجودين . وفي ركن قصي كفّ صفار اخت زوجتي عن الحديث ، وتلاصقت رؤوسهـم الصغيرة وهم يتناقشون فيما قد حدث . ثم قبضت على كأسي وأنا أتساءل : هل أفرغها او اقذف بما فيها الى الحائط او الافضل الى النافذة ؟ ثم انهيت ذلك بأن أهرقتها في البالوعة . وكان هذا الدليل الفعال على تأكيد لا مبالاتي . ان أحسن خمر هي ما ذقته هذا المساء . ولذلك جعلت اصب منها شيئا فشيئا الى كأسي وأرتشفه قليلا قليلا وأنا اطيل في هـــذه العملية . ولكن السرور تأبى علـيّ ، وأخـذت الحياة العنيفة التي سالت في عروقي شكل الغضب . وتملكتنـي فكرة غريبة ان ثورتي لوحدي لا تكفي في تصحيح الاوضاع . الا يمكن أن أقترح على العروس لكي تنضم معي في هذه الثورة ؟ ولحســن

الحظ ، في تلك اللحظة بالذات ، تبسمت بعذوبة الى ذلك الذي يجلس باعتداد الى جانبها فقلت : « انها لا تعرف شيئا بعد ، ولكنها ستقتنع او عرفت » .

وتذكرت آن جيوفاني قال « دعوه يشرب فالخمر لبن العجوز » ، فنظرت اليه وأنا أكرمش وجهي في شكل ابتسامة . فاني لا أحبه ، وأعرف ان كل ما يهمه هو ألا أعكر مزاجه ، فأراد آن يترضاني وكأنني طفل سيىء الطباع يريد ان يعكر صفو الكبار .

ولم أشرب كثيرا ، ولم أفتح فمي بعد ذلك لان الآخرين كانــوا ينظرون اليّ . ان كل من حولي يتصايحـــون ببهجة ، وكان ذلك يضايقني . لم أصغ اليهم وان لم تكن هناك صعوبة في آن أتسمع . وبدأ جيوفاني وآلبيري يتناقشان ، وكان الجميع يتسلون بملاحظة النقاش بين السمين والرفيع . فيما كانا يتشاجران ؟ لا أعرف وان كنت قد سمعت الكلمات الجارحة من كليهما ، ولاحظت ان آلبيـري قد هب على قدميه ، ثم مال تجاه جيوفاني حتى بلغت نظارته وسط المائدة ثم التصق به تماما . اما جيوفاني بجرمه الثقيل الذي يزن سبعة عشر حجرا فقد تمدد براحة على الكرسي الذي أعطيه في نهاية الاكل على سبيل الدعابة . وكان يتفرس في آلبيري بامعان ، وكــان كمراوغ قدير يبحث عن منفذ يوجه منه ضربته الطاعنة . ولكن آلبيري ايضا كان معتدا بنفسه . هو بحق كان نحيفا للغاية ولكنه كـــان سليما متين البنيان .

وتذكرت كذلك التهاني والامنيات التي لا حد لها ساعة الوداع . وقبلتني العروس وهي تبتسم بحنـان ، فاستلمت قبلتها وأنا شارد الذهن متسائلا : متى تحين الفرصة لكي أفضي اليها بأشياء عن تلك الحياة التي هي حياتنا ؟

وفي تلك اللحظة ذكر شخص ما اسما لصديقة قديمة ، وهي الآن صديقة زوجتي . لا أعرف من ذكر هذا الاسم ولا المناسبة التـي قيل فيها ، وكل ما أعرفه انه آخر اسم سمعته قبل ان يتركنـــا الضيوف في سلام . ومن سنين قد اعتدت على رؤيتها غالبا مـــع زوجتي ، وكنت أرحب بها بالفة غير مبال بالناس الذين لا يريدون ان يتذكروا اننا قد ولدنا في مدينة واحدة ، واننا في عمر واحـد تقريبا . على أي حال أذكر انني قد انصرفت عنها منذ سنين كثيرة ، فقد كنت مغرما بها حتى تلك اللحظة التي اقترنت فيها بزوجتي . ولم يفهم انسان ذلك السلوك الغريب الجاف الذي لم أحاول أن الطفه بكلمة واحدة . لانها هي ايضا قد اسرعت في الزواج بعـــد ذلك وكانت سعيدة جدا في حياتها . ولم تكن حاضرة ساعة العشاء لان انفلونزا خفيفة ـ وليس شيئا خطرا ـ قـد الزمتها الفراش . ولكنه شيء غريب وهـــام ان اتذكر الآن الاساءة الى حبنا ، تلك الاساءة التى اثقلت ضميري وارهقتنى بما فيـــه الكفاية وجعلتنى احس انها كانت كعقاب لي . وخيل اليّ انني اسمع ضحيتي من على سريرها حيث تقضي فترة النقاهة تحتج قائلة : « ليس من العدل ان تكون سعيدا » . فانصرفت الى حجرة نومي مبتئسا ومرتبكا ، فليس من العدالة في شيء أن اترك زوجتي تسيء الى شخص حلت محله .

واقبلت « ايما » لتقول لي : « طبت مساء » . كانت مبتسمة ووردية وناعمة ، وقد نشرت حولنا جوا من البهجة لا يكون الا حيث يكون الشباب والصحة . وقد تعودت حدثنا ان افهم طبائع الآخرين وخاصة ابنتى التى هي فى شفافية الزجاج . فان هياجي قد جعلها مركز اهتمام من عيون الآخرين ، فتمتعت بذلك بكل بساطة . قبلتها وانا مرتاح لانني اراها هكذا سعيدة وراضية ، ثم رايت من واجبي ومن اجل مصلحتها آن أبين لها انها لم تعاملني باحترام كاف ، ولكن الكلمات لم تسعفنى فامسكت لساني ، ثم انصرفت وما زالت محاولتي فى البحث عن كلمات تشغلنى وتربكني وتكلفني جهدا . فهدأت نفسي وقلت : « ساحدثها فى ذلك غدا واكشف لها عن الاسباب » . ولكن هذا لم يجد ، فانا قد أسأت لها وهي قد أساءت لي ، ولكن الاساءة البالغة ان تنسى كل شيء مع انني لم آكف عن التفكير في شيء .

وأتى « اوقافيو » كذلك ليستأذن في النوم . غريب أمر هـذا الولد . لقد قال لنا « طابت ليلتكم » دون ان يعيرنا انتباها . وحين ناديته وقلت له « هل كنت مسرورا بالذهاب الى معرض الصور ؟ » توقف وبذل جهدا ليتذكر ، وقبل ان يبتعد قال باقتضاب : « نعم » والنوم يغالبه .

وناولتني زوجتي علبة الدواء ، فسألتها وعلى وجهي قطعة من الثلج : « هل هذه هي الحبوب ؟ » .

فاجابت بتلطف : « هي بالطبع » . ثم سألت بتلعثم وهــــي لا تعرف وجهة أفكاري : « هل انت بخير ؟ » .

فاجبتها بثبات وانا اخلع فردة حذائي : « انا على احســـن حال » .

وفي تلك اللحظة بدأت معدتي تشتعل ، فقلت في نفسي وأنا أرتاب في غرضها : « هذا ما تعنيه » .

ابتلعت حبة من الـــدواء بقليل من الماء ، فأحسست ببعض الراحة . ثم قبّلت زوجتي على خدها بطريقة آلية قبلة تذهب بطعم الدواء ، ولكن لا مفر منها اذا أردت آن أنجو من المناقشات والمماحكات . ولكن لن أرتاح حتى أوضح موقفي من الصراع الذي لم ينته بعــد بالنسبة لي ، فقلت وأنا أسترخي على السرير : « اظن ان الحبوب تكون اكثر تأثيرا لو اخذت مع الخمر » .

اطفأت زوجتي النور ، وانبأنـي انتظام تنفسها على خلو بالها . انها غير مبالية تماما بكل ما هو من شأني . لقد كنت أترقب تلك اللحظة بشغف . فأخيرا اصبحت حرا في أن « أشخر » كما يحـلو لي أو أبكي لما أنا فيه من اليأس . وأردت آن أفعل ولكن الالم اشتد في اللحظة التي نلت فيها حريتي . آين هي الحرية وكيف يمكنني أن أنفس عن الغضب الذي يشتعل بداخلي ؟ كل ما استطعت ان افعله هو ان افكر فيمـا ساقوله غدا لزوجتي وابنتي « لقـد كنتما ثقلتين للغاية على صحتي حين اخذتما تضايقاني امام الناس » . انني هنا على السرير اشتعل غيظا بينما هم ينامون في أمان . يا للنار التي تشتعل بداخلي ! ان جمرة ضخمة قد اجتاحت جسدي وهي تحـاول ان تخرج من خلال زوري . ان هناك زجاجة ماء على « الكوميدينو » حاولت ان اصل اليها ، ولكن يدي ضبطت الكوب الفارغ . وكـانت هذه الضجة كافية لان توقظ زوجتي . فقالت : « نعم » ، ثم نامت بعين واحدة مفتوحة .

قالت بصوت خفيض : « هل تحس بالم ؟ » . فخمنت انهـا لم تكن متأكدة تماما مما سمعته ، ولم ترد ان تزعجني . ولكن فكرة غريبة تملكتني ، انها تتبع حالتي وكأنها تلتمس الدليل على صواب رأيها ، فتخليت عن فكرة الماء ولزقت بالسرير . وفي التو عادت الى نومتها الخفيفة التي تمكنها من ملاحظتي .

وبكل صراحـة ينبغي عليّ ان انام حتى لا اتورط فيمـا هو اسوأ مع زوجتي . فاغمضت عينيّ واستدرت على جنبي ، ولكن اضطررت لتغيير هذا الوضع من جديد . وكنت عنيدا فلم افتح عينيّ . ان كل وضع يعني التضحية بجزء من جسدي . وقلت : « يستحيل النـوم مع جسد مثل هذا » . اصبحت كلي حركة وكلي استيقـــاظ . ان الرجل الذي يعدو لا يمكن ان يفكر في النوم . وجعلت الهث كرجـل يجري وصوت اقدامي وهي تخبط باحذية ثقيلة يملأ أذنيّ . فكّرت ألا يمكن ان اعثر على وضع يريح كل أطرافي . لا جدوى من المحاولة . فرأيت ان اترك كل عضو يجد المكان الذي يناسبه . طويت نفسـي باقصى عنف استطيعه . وفجاة تمتمت زوجتي : « هل تحس بشيء ؟ » . لو استعملت تعبيرا آخر لأجبتها طالبا منها العون . ولكني ارفض ان اجيب على هذا التعبير الذي يومىء بتشفٍ الى شجارنا .

وبعد ، فما زال امر نومي امرا يسيرا . آية متاعب توجد في رفادي على السرير ؟ رحت أقلب كل المصاعب الكبيرة التي تكتنف سبيلنا في هذه الحياة . ووجدت ان مسالة النوم لا تعني في الحقيقة شيئا اذا قيست بأية عقبة . ان اي حصان عجوز ومتهالك يستطيع ان يغفو وهو واقف . ووجدت ان كل الاوضاع قد استنفدت في تصميمي على النوم . ولكن كنت متشبثا حتى النهاية ، فانشبت أسناني في نهاية الوسادة ثم لويت نفسي بطريقة استقر صدري فيها على الوسادة ، وتدلت رجلي اليمنى فكادت تلمس الارض ، وتشبثت رجلي اليسرى بالسرير فشبكتني به . يا لله ! لقد اكتشفت طريقة جديدة ، فلست أنا الذي يمسك بالسرير ولكن السرير هو الذي يمسك بي . وحين تزداد الازمة كان يخيل لي انني قد فقدت الحياة ، ومن ثم تشبثت اكثر بالسرير . ولكن لا بد من حل ، فجعلت أطمئن نفسي ان جزءا من تلك الليلة المزعجة قد مر ، وانني قد نلت جزائي . فاطلقت نفسي من السرير بنشوة مصارع قد تخلص من قبضة غريمه .

لم أعرف كم غفوت . كنت متعبا . ولدهشتي فقد لاحظت لمعانا غريبا في عيني المقفلة . انه اعصار من اللهب يخيل لي انه صادر من النار التي تشتعل بداخلي . لم يكن لهيبا حقيقيا ولكنه في لون اللهيب ، ثم اخذ يتلاشى وهو يتشكل في دوائر او على وجه الدقة في قطرات من سائل لزج ، تحوّل لونه الى لون ازرق وهادىء وان كان محاطا بحواش حمراء ومتوهجة . وكانت هذه القطرات تتساقط من فتحة من فوق ، ثم تمتد وتتفرق الى ان تختفي اسفل . وخيل لي في اول الامر انها تستطيع ان تراني ، ثم ما اسرع أن تحولت – الكي تراني بطريقة افضل – الى عيون ضخمة وكثيرة . وبينما هم يتكاثرون ويشكلون دائرة صغيرة من مركز سقوطهم تبدو ذات غطاء ازرق ، انكشفت عين حقيقية شريرة وحقودة ، وطاردتني مجموعة من الناس تضمر لي الكره ، فاضطربت وجعلت أئن وأصيح : ((يا الهي)) .

سألتني زوجتي فجأة : ((هل تحس بشيء ؟)) .

مضى وقت قبل ان أجيب ، تذكرت فيه انني لم اكن على السرير بل كنت ملقى بقربه ، وان السرير قد اتخذ وضعا مائلا بسبب سقوطي ، ثم اجبتها صائحا : ((انني مريض ، مريض جدا)) .

اوقدت زوجتي شمعة ، ثم وقفت بجواري بقميصها الاحمر كشفتيّ ، فاقتنعت تمام الاقتناع بأنني قد نمت حتى ساعتي تلك ، لان السرير ما زال في وضعه المستقيم ، وما زلت راقدا فوقه بمنتهى الراحة . وحين تأكد لي ذلك ولم اتذكر فيما اذا كنت قد طلبت نجدة زوجتي ، نظرت اليها بدهشة وسألتها : ((ماذا تريدين ؟)) .

نظرت اليّ وهي متعبة ونصف نائمة . ان صيحتي جعلتها تقفز من السرير ولكنها لم تسلبها رغبتها في النوم ، التي كانت قوية لدرجة انها لم تتحر فيما اذا كانت على حق ام لا . لم تضيع وقتا فسألتني : ((هل تريد النقط المنومة التي وصفها لك الطبيب ؟)) . تلعثمت مع ان رغبتي في التحسن كانت قوية . ثم قلت وانا اظهر التمنع فقط : ((اذا احببت)) ، لانني اعرف ان تناولي النقط لا يعني شيئا سوى الاعتراف بانني في حالة سيئة .

ومرت لحظة تمتعت في اثنائها بسكينة تامة ، واستمر هذا طيلة الفترة التي كانت فيها زوجتي تعد النقط على ضوء الشمعة الخافت وعليها قميصها الاحمر . السرير كان مستويا دون ادنى شك ، وجفوني كامنة اذا ما اغلقتها لتحجب الضوء عن عينيّ ، وكنت افتحهما من حين الى حين ، فكان الضوء الخافت واحمرار القميص يمنحاني من الراحة مثل ما يمنحها لي الظلام الخالص . ولكن زوجتي لم تستمر في مساعدتي لحظة اكثر مما يتطلبها الموقف . فتركتني وحيدا في ظلمة الليل اناضل من اجل الراحة .

تذكرت انني وانا صغير حين كنت اريد النوم فانني اجبر نفسي على التفكير في منظر عجوز قبيحة ، فتنصرف عني المناظر البديعة التي كانت تؤرقني . أما الآن فانني استدعي الجميلات بدون خوف ، فهل سيساعدنني او ان هذه هي الميزة الوحيدة للعجوزات ؟ فكرت في كثير من الجميلات اللواتي كنت احبهن في الشباب ، في السن اللاني يتكاثرن فيها بأعداد كثيرة . وجعلت أستنجد بهن بالاسم ، ولكنهن لم يأتين بل ولم يبدو انهن سيأتين . فجعلت أصيح وأصيح بالحاح ، حتى ارتفع لي من خلال الاسماء وجه واحد بديع ، انها ((أنتّا)) . نعم هي كما كانت منذ سنين كثيرة ، ولكن وجهها الذي كان متوردا وجميلا ومعبرا ، قد اكتسى بمسحة من الالام والتبكيت . وكان واضحا ان ظهورها لن يعني الراحة لي ولكن يعني التأنيب . وجعلت أتحدث اليها . انني أعرضت عنها من قبل وكان من العدالة ان تسارع بالزواج من اي انسان آخر . وهي قد أنجبت بنتا عمرها الآن خمسة عشر عاما ، وتشبه أمها في لونها الرقيق وشعرها الذهبي وعينيها الزرقاوين ، وان كان وجهها قد تحرف بتأثير ذلك الذي اختير لان يكون أبا لها . وقد ضمت شعرها المتموج اللطيف في كتلة من خصل مشدودة ، وكان خداها كبيرين وفمها واسعا وشفتاها ممتلئتين للغاية . ان لون الام قد اتحد مع قسمات الاب فأعطيا تأثير قبلة متحدية في مكان عام . ماذا تريد ((أنتّا)) مني الآن بعد أن تعمدت ان اراها وهي متأبطة ذراع زوجها ؟

وكانت هذه هي المرة الاولى التي أحسست فيها في ذلك المساء انني قد نجحت . ان ((أنتّا)) قد أصبحت اكثر لطفا وتفكيرها قد تغير وقرينها لم يعد مستساغا لي . لعلها تمكث معي . وفي التو استغرقت في النوم معجبا بها ومستحسنا فكرتي الرائعة .

ورأيت حلما مرعبا ، فقد كنت في بناية غامضة لم افهمها في أول الامر مع انني كنت جزءا منها . كانت عبارة عن كهف ضخم ووعر ليست فيه اية نقوش مما تسلي الطبيعة به نفسها باتجاده على الكهوف . وهذا يدل على انها من صنع انسان . وكنت جالسا هناك على كرسي بثلاثة ارجل وبجانب صندوق زجاجي مضاء بضوء خافت لا يصدر الا منه . وكان هذا هو الضوء الوحيد في البناية الضخمة . ومع ذلك فقد كان كافيا جدا ليكشف لي عن حائط ضخم مكون من حجارة خشنة وكبيرة وتحته حائط من الاسمنت . كيف تفسر المباني في الاحلام ؟ ستجيب ساخرا أن مهندسها يفهمها بسهولة ولكنه لا يتذكر شيئا حين يستيقظ ، وحين يعود بذاكرته الى عالم الاحلام حيث تشاد هذه المباني بسهولة فسيدهشه ان كل شيء هناك يكون مفهوما دون الحاجة الى كلمة واحدة .

وفي الحال فهمت ان هذا المبنى قد أعد ليكون تأديبا وعلاجا يعود بالشؤم على كل واحد من المحجوزين فيه – لا بد وان يكون هناك عدد من الناس موجودين في الظلام – ولكنه نفع عظيم للاخرين . نعم هذا ضرب من ضروب العقيدة يتحرى الضحية ، فكان من الطبيعي ألا اندهش .

وكان سهلا جدا ان اخمن ان الاختيار قد وقع عليّ لاموت من اجل الاخرين ، ما دمت قد وضعت هكذا قريبا من الصندوق الزجاجي حيث كانت تختنق الضحية . وما أسرع ان عانيت مقدما من ألم الموت الفظيع الذي يعدّ لي ، فجعلت اتنفس بصعوبة ، واخذت رأسي تؤلمني وتثاقلت عليّ حين اردت ان اريحها على يدي أو على مرفقي او على ركبتي .

ثم أصبح كل شيء مما يقوله الناس المختبئون في الظلام مفهوما لي ، فظهرت اول ما ظهرت زوجتي وهي تقول : ((أسرع ، فالدكتور قال انه يجب أن تدخل في الصندوق)) . ظننت ان هذا من قبيل المزاح المؤلم ، ولكنها كانت طبيعية للغاية ، فلم أبد أي اعتراض ، وكل ما هنالك انني أظهرت عدم السماع وقلت لنفسي : ((دائما اعتبر حب زوجتي لي حبا غبيا)) . ثم صرخت مجموعة الاصوات الاخرى وهي تقول بعنجهية : ((ألا تنوي ان تطيع ؟)) . وميزت من بينها

صوت الدكتور « باولي » ، فلم اعترض وقلت لنفسي « انه يفعل ما يفعل من اجل النقود » .

ورفعت رأسي لاتفحص من جديد الصندوق الزجاجي الذي ينتظرني ، فاكتشفت ان العجوز كانت تجلس فوقه ، وقد احتفظت – حتى في هذا الوضع – بطابعها المميز في الهدوء ورباطة الجاش . كنت أستهين كثيرا بتلك المرأة العادية ، ولكن اكتشفت انها ذات أهمية كبيرة بالنسبة لي . كنت اكتشف ذلك في الحياة العادية ، كما اكتشفته الآن وأنا اراها تجلس فوق الوسيلة التي اعدت لهلاكي . وحينئذ نظرت اليها وأنا أهز ذيلي مثل كلب من تلك الكلاب الصغيرة الحقيرة التي تهز ذيلها من اجل ان تشق طريقها في الحياة .

ثم تكلمت العروس دون عنف ، وبدت كلماتها طبيعية اكثر من أي شيء آخر في العالم ، قالت : « خالي ، ان هذا الصندوق قد أعدّ لك » .

فاصبح من اللازم عليّ ان اناضل من اجل حياتي وحيدا بيد واحدة ، وجعلت اتساءل كيف استطيع ان ابذل جهدا مضاعفا دون ان يتنبه احد . وفكرت في طريقة تمكنني من ان اكسب قضيتي دون ان افتح فمي ، ثم عدلت عنها الى طريقة أخرى ، لم اعرف ما هي بالتحديد ولكنها تجعلني اناضل دون ضجة ، وذلك بان انقض على اعدائي وهم في نوبة حراستهم . وما اسرع ان احسست بالتعب . ثم رأيت « جيوفاني » – جيوفاني السمين – وقد جلس في الصندوق الزجاجي المضيء وعلى كرسي يشبه الكرسي الذي اجلس عليه وفي الوضع نفسه . ولان الصندوق كان منخفضا جدا فقد انحنى الى الامام وأمسك بكؤوسه بيده ليمنعها من ان تحتك بانفه ، وقد بدا في تلك الهيئة وكأنه يفكر في مسالة تخص العمل ويستعين عليها ببضعة كؤوس تساعده على التركيز . وفي الحقيقة لم يكن مشغولا بالموت الذي يقترب منه مع انه كان يستحم في عرقه ويلهث . وقد وضح في عينيه الارهاق والتعب فاستنتجت انه قد بذل جهدا مثل الذي قد بدأت ابذله ، ولم احسّ نحوه باية شفقة بل كنت خائفا منه .

ثم تخلص جيوفاني من الصندوق واحتل مكانه البيري – ذلك الرجل السليم الرفيع الطويل – وقد اتخذ الوضع نفسه الذي اتخذه جيوفاني من قبل . ولكن الامور ، نظرا لطوله ، كانت اسوأ ، فكان ينحني اكثر واكثر . وهو في الحقيقة قد اثار شفقتي لانه – مما زاد في الهه – لم يكتشف سوء النية ، فكان يتفحصني فوق وتحت بابتسامة خبيثة ويخيل اليه انه يستطيع متى اراد ان يهرب من الموت في الصندوق .

ثم تكلمت العروس من فوق الصندوق للمرة الثانية قائلة : « والآن ، يا خالي ، قد جاء دورك ، بالطبع » . وكانت تنطق كل مقطع بدقة متحذلقة ، وصاحب كلماتها صوت آخر ياتي من بعيد جدا ومن علو شاهق ، واستنتجت من الضجة المنتشرة والتي يقوم بها شخص يتحرك بسرعة ، ان الكهف ينتهي بممر وعر يؤدي الى سطح الارض . وسمعت صفيرا ، ولكنه كان صفير ارتياح يصدر من « آنا » التي أبدت لي مرة كراهيتها التي لم تملك الجرأة لتعبر عنها بكلمات ، والا لاقنعتها بانها قد ادينت تجاهي اكثر مما انا فعلت . ولكن ماذا يجدي الاقناع امام الاحساس بالبغض .

وقد ادانني كل شخص ، فقد رأيت زوجتي والطبيب يروحان ويجيئان منتظرين في طريق في جزء آخر من الكهف وبعيدا مني ، وكان وجه زوجتي قد اكتسى مسحة من الاستياء ، وكانت تلوح بعنف وهي تعدد جرائمي : الخمر ، الاكل ، المعاملة الجارحة لها ولابنتها .

وجعلت أجر نفسي الى الصندوق وعليّ سيماء الفوز . كان البيري يستدير نحوي . اقتربت وانا على الكرسي اكثر حتى كنت على بعد بوصة تقريبا ، ولكني أفهمت ان القانون ينص على ان اكون على بعد نحو ياردة وحينئذ اطرح الى الصندوق بطريقة مضبوطة وفي دفعة واحدة وانا ألهث .

ما زال هناك امل في النجاة ، فان جيوفاني الذي كان قد تخلص تماما من اثر نضاله الشاق قد اقترب – كما ينص القانون – من الصندوق الذي لم يعد مخيفا له كما كان وهو فيه منذ لحظات ، وانتصب واقفا في الضوء وهو ينظر الى « البيري » الذي كان يلهث ويتوعد . لقد كان يتوعدني وانا اقترب ببطء من الصندوق . فصحت : « جيوفاني ، ساعدني لابقيه في الصندوق وسادفع لك ما تريد » . واخذ الكهف كله يردد صيحتي التي رنت كضحكة ساخرة . لقد فهمت ، فلا فائدة اذن في ان استجدي الرحمة ، فلست انا الاول ولا الثاني الذي يوضع في الصندوق بل الثالث . وقانون الكهف ، شأن كل القوانين ، هو الذي يمكن ان يساعدني . وكان من الصعب عليّ ان ادرك ان ما يحدث الآن لم يعد خصيصا من اجل ايذائي وان ما حدث لي كان نتيجة لهذا الظلام ولذلك الضوء . ولم يجب « جيوفاني » على ندائي وهز كتفيه ليبدي أسفه في انه لا يستطيع ان يبيع لي الامن .

وحينئذ صرخت للمرة الثانية : « اذا لم يكن بد فخذوا ابنتي وهي نائمة هنا قريبا مني ، وهذا افضل » . وارتدت لي هذه الصيحات في صدى عال . ومع انه لم تكن هناك فائدة فقد صحت انادي ابنتي : « ايما ، ايما ، ايما » .

وجاءتني اجابة « ايما » من مكان سحيق بالكهف . كان الصوت صوتها وما زالت فبه رنة الطفولة وهي تقول : « أنا هنا يا أبت ، أنا هنا » .

وبدا لي انها لم تجب على الفور ، ثم حدثت رجة عنيفة ظننتها نتيجة لقفزي الى الصندوق وقلت لنفسي : « هذه البنت دائما تتلكأ في اطاعتي » . ولكن تلكؤها هذه المرة كان السبب في خلاصي وامتلائي بمرارة مؤلمة .

فقد استيقظت . وكانت هزة ونقلة من عالم الى آخر . وكان رأسي وجذعي خارج السرير ، وكدت أسقط لولا ان زوجتي سارعت الى نجدتي ثم سألتني : « هل كنت تحلم ؟ » وتحركت وهي تقول : « فقد كنت تنادي على ابنتك ، فكم أنت تحبها ؟ » .

بهرت في اول الامر بالواقع ، وقد بدا كل شيء لي على حقيقته ، وقلت لزوجتي التي يجب ان تعرف كذلك كل شيء : « ان اولادنا لن يغفروا لنا لاننا جئنا بهم الى هذه الحياة » . ولكنها أجابت ببساطتها المعتادة : « ان اولادنا سعداء بأن يكونوا أحياء » .

كان عالم الحلم هو العالم الذي احسست بانه حقيقي ، وكان يحيطني من كل جانب ، واردت ان اكشف عنه فقلت : « لانهم لم يعرفوا شيئا بعد » . ثم توقفت ولذت بالصمت . فعلى طلائع الضوء الذي تسلل من النافذة المجاورة لي فهمت انه لا ينبغي لي ان احكي حلمي ، اذ يجب ان اخفي العار الذي لحقني منه . ثم كففت تماما عن الاحساس بالعار على ضوء الشمس الذي بدا أزرق ناعما ثم أصبح ملحا وغامرا للحجرة باجمعها .

ان عالم الحلم ليس عالمي ، فلست انا الرجل الذي يستجدي ويهز ذيله او الذي يضحي بابنته من اجل نفسه .

وعلى أي حال وبأي ثمن لا يجب ان اعود مرة اخرى الى هذا الكهف الفظيع . وهذا ما يفسر كيف اصبحت اكثر اذعانا واطاعة لاوامر الطبيب ، ولكن ايمكن ان يحدث هذا من دون اي خطأ مني ودون ان يكون نتيجة للجرعات المتزايدة ، ولكن بسبب لهيب الحمى التي تنتابني ؟ فعليّ اذن ان اعود للكهف واقفز مباشرة الى الصندوق الزجاجي – لو وجدته – دون ان اهز ذيلي ثم أغدر .

عبد الحميد ابراهيم